

الدخول من سلم الخدم

حينما لامست عيناي شوارع نيويورك لأول مرة كان أول شعور لى أشبه بالصدمة لهذه العملاقة والضخامة فى ناطحات السحاب، وهذه الكتل المعمارية الهائلة من الحديد والحرسانة، وهذه الغابة الهائلة من الأسمنت والصلب.. وكان واضحا أن القيمة التى تسيطر على عقول هؤلاء الناس هى الضخامة والعملاقة والقوة، كبديل عن الرفاهة واللف والجمال والركة.. ونفس الشئ فى الموسيقى النحاسية الصاخبة، وأصوات الديسكو التى تصك الآذان، والتى انتشرت فى كل مرقص وبار بديلا من التوريات الناعمة المرففة، والتانجوهات الحاملة التى تعودناها.. وفى الميناء البوارج وحاملات الطائرات وأوناش ترفع ألوف الأطنان كالمردة.. وشركات كالحيتان تتعامل فى ألوف الملايين من الدولارات، وفى التلفزيون أخبار تدوى منبئة بوصول السفينة الفضائية إلى زحل ومشاهد مفصلة لهذا الكوكب البعيد النئى يدور على بعد مليون ميل..

كان من الواضح أنى أشاهد ملامح حضارة مادية كاملة بكل

مقوماتها.. حضارة تؤثر الضخامة على الجبال، وتفضل المكسب على القيمة، وتعلو العقل على الوجدان، وتعلو العلم على الحدس، وتعلو التجربة على الإيمان، وتعشق المباشرة الحسية لكل اللذات.. حضارة تلهث خلف القوة والمتعة واللحظة.

وقد أصابت هذه الروح بعدواها كل المدن الكبرى.. وما نراه في لندن وباريس وبرلين وهامبورج ومدريد وجنوة والبندقية هي نفحات من هذه الروح المادية المكتسحة.. بل في القاهرة.. بل موسكو وبكين وطوكيو.. بل العالم كله قد غلبت عليه هذه الحضارة المادية بطقوسها وسدنتها وأهتها وشريعتها ومنطقها.. بل داخل كل نفس من نفوسنا الآن منطقة نفوذ ومجال انجذاب لهذا النمط من الحياة المادية الاستمتاعية اللاهثة.

والفيلم السينمائي، والمسرحية، والتمثيلية التليفزيونية، والأغنية، والصحيفة، والمجلة، أصبحت جميعها نشرات دورية تروج لهذا اللهاث المادي.

المال والجنس والآلة والقوة تحكم الآن في صرامة على جميع مداخل التفكير..

وكما كانت الدنيا أيام بابل وآشور من ألوف السنين فراشاً ممدوداً للبذخ والمتع الفارسية، يعود التاريخ فيدخل في دورة أخرى مماثلة، لكن على مستوى أعلى هذه المرة، فالحياة الآن مسلحة بكل ما يمكن أن يهبه العلم والالكترونيات من متع

مضاعفة، ولذا ذات سهلة، وقوى جهنمية مدمرة.

وفي المتاحف التي زرتها توقفت طويلاً أمام اللوحات الفنية الحديثة، وقطع النحت المعاصرة، وبعضها مجرد شخبطة بالألوان، أو زلطة مقلوبة على رأسها، أو مجموعة أسياخ من الحديد الزخرفي، وأحياناً مجرد كومة من الحديد الصدئ، أو صفيحة زباله..

سمة أخرى من سمات هذه الحضارة المادية التي أعلنت الثورة على القيم الخلقية والدينية نراها هنا تعلن الثورة على القيم الجمالية، وتحاول إعلاء التنافر على الاتساق، والفوضى على النظام، فتكسر التناظر، وتحطم المؤلف، وتصدم العين بالجديد حتى ولو كان قبيحاً.. واليهودي بيكاسو - ولا شك كان هو البادئ بهذه الثورة، ولكن ما لبث أن تجمعت خلفه قبيلة من المريدين والأتباع من كافة مدارس الرسم الجديدة في كل بلد.

ألم يفعل كارل ماركس نفس الشيء في الفلسفة والسياسة.. فيعلى الصراع على التوافق، والتناقض على المصالحة، والحرب الطبقة على التفاهم، والحقد على التواد والتكافل الاجتماعي؟ ألم يبارك تروتسكي الحقد باعتباره الرافعة المقدسة التي سوف تقلب التاريخ؟

ألم يكن الجميع كتيبة متآلفة صنعت لنا بأفكارها هذا العصر المادي المضطرب الذي نعيشه، والذي نسير فيه على غير هدى،

أو على هدي من أفكار جاهزة صنعت لنا صنعا، وغسلت بها
أدمغتنا غسلا بفعل كتب وإذاعات ونشرات وروايات وأفلام
ومتاحف وأغانٍ؟

ثم ماذا؟!

ثم إلى أين يدفع هذا القطيع البشرى؟

إن الإكثار من الحلوى يسوس الأسنان، والإسراف في الأكل
يورث البدانة والترهل، والعكوف على الشهوات يورث الخمول..
والترف يربى القسوة والبلادة..

هذا في الأفراد..

أما في المجتمعات فإن تراجع القيم الخلقية والدينية، وسيادة
مبدأ المصلحة والمكسب، وغلبة مبدأ القوة، وتحكم الهوى في
الناس.. يؤدي إلى تفكك العلاقات الاجتماعية.. فالقيم هي التي
تربط الأفراد بعضهم ببعض، بينما المصالح تفرقهم، والأهواء
تشتتهم.

والقيم هي التي تخلق الإجماع والاتفاق ووحدة الهدف ومسيرة
التقدم.

وحيثما تضعف القيم ولا تعود قادرة على تجميع الناس..
ينفرط عقدهم.. تتفكك الأسرة.. وتتهار أسس كل أنواع العقود
الاجتماعية التي تقوم عليها عمارة المجتمع والحضارة، ولا يبقى إلا

التخويف والإرهاب والقوة كوسيلة وحيدة للإمساك بالكيان الاجتماعي ولفرض النظام وحماية العقود.. فتلجأ الحكومات إلى العنف والقهر وقوانين الطوارئ وتلجأ الأطراف المقابلة إلى الإرهاب وتفجير القنابل، وخطف الطائرات، واعتقال الرهائن، وتصبح الصدارة للطغاة والجبارين، والبلطجية والإرهابيين (ألا نلاحظ حولنا بداية هذه التحولات بالفعل)

ثم ماذا بعد؟!

تحدث الفوضى، وينعدم الأمن، وتتعاقب الأزمات الاقتصادية ودورات الكساد على الناس، ويسود الضنك والكلال والإجهاذ.. وترى الناس بين غارق في المتع الحسية إلى أذنيه، سكران لا يدرى، أو منسحب معتزل ساخط وعاجز عن مواجهة الطوفان.

لقد بدأ العد التنازلى بالفعل.. بدأ السير نحو هذا الطريق المنحدر، وبدأنا نلاحظ هذه الشواهد تحدث متفرقة هنا وهناك تنذر بقرب النهاية.

ولكننا مازلنا نتبع في حضارتنا وفي ثقافتنا وفي مجلاتنا وفي أفلامنا وأغانينا وفي موسيقانا الأوامر والتعليمات التى تأتينا من العواصم الكبرى: من لندن، وباريس، ونيويورك، وموسكو.. ومازلنا نتشرب هذه الحضارة المادية مبهورين، ونحذو حذوها، ونرسم خطاها، ونحاول تقليدها.

نحاول أن نجعل من القاهرة نسخة من لندن..

نقلد سلوكيات الخواجات، وللأسف نقلد فقط السلبيات (الظواهر الانحلالية في الفن والسلوك) بشغف أكثر وشوق أكبر من تقليد الإيجابيات (العلم والتكنولوجيا).

وهذا التقليد الناقص الذى نظن أننا بفضلله سوف نلحق بقطار التقدم، للأسف لن نلحق إلا بعربة «الترسو» أو البضاعة، أو نتعلق بضلفة من الباب، أو سلم الخدم.

ثم لا ندرك أن القطار كله يسير إلى منحدر.. فنهمل فرحين أننا أصبحنا مثل الخواجات، وننسى أننا لنا عطاؤنا الخاص الذى يمكن أن تتفوق فيه ونسبق فيه.. وأنا بالتقليد نخسر أنفسنا.. ثم لا نصبح خواجات، ثم لا نلحق بهم فى شىء يذكر، فقد دخلنا حلبة السباق متأخرين مائة عام، ثم لن نشاركهم انتصاراً، بل كارثة وشيكة سوف تأتى على بنيانهم من القواعد.

والتسويس فى الحضارة المادية ليس سببه العلم أو الإلكترونيات أو الذرة أو سفن الفضاء، فالعلم برىء، وهو أداة طيعة فى خدمة صاحبها، إن أرادها للخير قدمت له أقصى النفع، وإن أرادها للشر أوردته المهالك.. ولكن التسويس سببه ضعف العقيدة الإيمانية أو انعدامها، فلا إيمان عندهم إلا بال اللحظة.. وفكرة الرب العادل والميزان والحساب والبعث والآخرة مسائل غير مطروحة فى أذهانهم.. أو مرفوضة تماماً ولا اعتبار لها.. وما

دام لا وجود إلا للحظة الحاضرة، ولا حياة إلا حياتنا الدنيا هذه، فلنعتصرها لذة وعملاً ومتعة، ولنجمع فيها أقصى ما نستطيع من قوة ومال ونفوذ وسلطان، فلا شيء بعدها.. وإن اعترضتهم القيم والاعتبارات الخلقية فلا مانع عندهم من المساومة عليها، فكل شيء في الحضارة المادية قابل للتفاوض، وكل شيء نسبي، ولا حقيقة مطلقة، وهذه هي الفلسفة «العلمانية» من كلمة العالم وليس من كلمة العلم ومعناها الدنيوية..

ولكننا هنا في بلادنا نفكر بطريقة أخرى، ولنا منطلقات حياتية مختلفة.. فالرب العادل والميزان والحساب والبعث والآخرة حقائق موجودة في داخل الأهرامات وفي مقابر الأجداد من ألوف السنين، والتوحيد حقيقة نادى بها ملوك كأخناتون، وأنبياء كإدريس وموسى وعيسى ومحمد، عليهم الصلاة والسلام.. وهى فى دمنا وإن ابتعدنا عنها سلوكياً.. وهى قارب نجاة لنا ولمن شاء من أهل الغرب وأهل الشرق فى الطوفان القادم، وهى لا تمنعنا من الأخذ بأسباب العلم والإلكترونيات والذرة والفضاء، ولكنها تمنعنا من سلوكية التهالك والتهافت والتقاتل والتدافع على اللحظة، وعلى جمع المال، وانتهاب الملذات، وتسول السلطة، واغتنام النفوذ والجري وراء القوة لهدف التحكم فى الناس، وهى تمنعنا من المساومة على القيم، وتؤكد لنا أن الجمال حقيقة لا تجوز الثورة عليها بهدف القبح ولمجرد الإتيان بالبدع، وكذلك الخير حقيقة لا يجوز التنازل فيها بهدف الريح ومكاسب اللحظة.

ونحن إن تنازلنا عن هذه القيم العالية والمبادئ الرفيعة من أجل أى مكسب أو أى تقليد فإنما نتنازل عن أنفسنا وعن هويتنا وعن مقعدنا الوحيد الآمن فى سفينة نوح فى الطوفان الوشيك القادم فى الطريق.

ونحن نستطيع أن نقدم لإخواننا فى الشرق وفى الغرب - من أهل الحضارة المادية - شيئاً جديداً وهاماً بدلاً من أن نتسول نفاياتهم ونقلد نقائصهم.. وديننا لا يمنعنا من أن نأخذ منهم العلم والصناعة والتكنولوجيا وفنون الإدارة، ولكن يمنعنا أن نأخذ منهم التبذل والتحلل، ومبازل الرقص والشرب والتفسخ الجنسى.

وصحيح أن فاترينة الحضارة المادية مبهرة تخلب العين، وتحطف البصر بمننتاجاتها وإنجازاتها، ولكن لا يصح أن تحطف منا الضمير والبصيرة ونور القلب الذى خصنا الله به نحن أهل التوحيد.

ويجب أن نتذكر دائماً أن عندنا شيئاً عظيماً.

ويجب ألا ننسى لحظة أننا انفردنا بعلم ربانى ونور داخلى أكثر إبهاراً، وأنا لو لزمنا هذا العلم وسلكننا على هدى هذا النور فسوف نتفوق ونفوز دنيا وآخرة.. ويجب أن ندرك من نحن.. وماذا نمتلك.. وقيمة ما نمتلك.. وقيمة ميراثنا بالقياس إلى ميراثهم ولا تغرنا الظواهر.. ولا يخطفنا البريق.

أما الذين تعلقت همتهم باللحظة وقضوا حياتهم جرياً ولهاثاً

خلفها، وانقطعت همتهم عن إدراك ما وراءها فهم في فقر مهما
جمعوا، وفي ظمأً مهما ارتووا.

كلما أترعوا شهواتهم ازدادت سعاراً.. لا تعرف نفوسهم
سكينة، فهم بين جوع يذهب وجوع يتجدد.. وفي نشاط أكال
لا يثمر راحة.

هم من الخارج بهرج وزخرف وبريق، ومن الداخل خواء.
وكذلك الحضارة المادية حينما توغل في ماديتها تتحول إلى
ضجيج وآلات وأضواء ومحافل ساهرة ومناظر باهرة.. ولكن
لا روح ولا قيم باقية.

ثم الموت.. ولا شيء بعد.. لا حساب ولا ثواب.. هذا قولهم..
فلتفعل ما يحلو لك.. فالدنيا كلها ملكك.. هذا شعارهم.. وظنهم..
وما أبعد الفارق بين الحياتين.. فبينها ما بين الأرض والسماء.



ونحن في تخلفنا الحالى وأزماتنا الاقتصادية ندرك هذه الهوة
التي ننحدر إليها، وندرك ما نخسره بالتقليد والتبعية، ونحاول أن
نستقل بشخصيتنا وحضارتنا، ونرفع شعارات العودة إلى
الأصالة.. والحل الإسلامى.. والحكم الإسلامى.. وتطبيق
الشريعة.. ولكننا نختلف ونتصارع، وننقسم إلى عشرات الفرق،
وعشرات التيارات بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، وبين رفض

تام للموجود ومحاولة الانقلاب عليه (جماعات التكفير والهجرة والجهاد) وبين الاكتفاء بالدعوة إلى مكارم الأخلاق، ورياضة النفس على السلوك الأمثل، والانقطاع للعبادة، وترك ما لقيصر لقيصر (الطرق الصوفية واليسار العلماني الذي يرى أن الدين مكانه القلب والمسجد، ولا يصح أن يزاول نشاطه في الشارع السياسي).

وأنا لا أتفق مع الاثنين، ولا أرى أن الانقلاب العسكري يمكن أن يصنع إيماناً، ولا أرى أن الفضائل يمكن أن تزرع في أربع وعشرين ساعة بمرسوم وزارى، ولا أرى الثورة الدموية فاعلة إلا خراباً وظلماً تضيفه إلى الخراب الموجود.. والخوميني مثال قريب.. كما لا أتفق مع الانسحاب الصوفي إلى قوقعة النفس ومزاولة الخلاص والنجاة بالتسايب في الخلوة، والدعوات الصالحة في غار. وإنما أنا من أهل الوسط العدل، الذي يطلب الإصلاح بالتعامل مع الواقع الموجود وليس بالثورة عليه.. التعامل من خلال القنوات الشرعية المتاحة.. من خلال الصحافة والمجلة والكتاب والإذاعة والتلفزيون.. ومن خلال قنوات الشورى.. ومن خلال الأحزاب.. ومن خلال خلق رأى عام له صوت، وله ضغط مؤثر يصل إلى الكمال التشريعى بالتدريج، وعلى مراحل.

ونحن أمام حالة «شيوع البلوى» الموجودة لا نختلف كثيراً عن حالة شيوع الخمر في الجاهلية التى أخرج الله الناس منها

بالتدرج التشريعي، ولا أحد منا يمكن أن يدعى أنه أقوى من الله.. فهو سبحانه أحكم الحاكمين، ولم ينزل الله بسيف التحريم على الخمر دفعة واحدة، وإنما أنزل به على مراحل..

ولا يمكن إخراج الناس من مألوفاتهم بقرار ثوري يأتي به بكباشي من فوق دبابه.. فهذه أمور جربناها وهوت بنا إلى الحضيض الاقتصادي والأخلاقي الذي نعيش فيه منذ الستينيات. والدين ليس شعارات وهتافات، وإنما هو اقتناع وتفاعل قلبي، وتفاهم وتعاون وتطبع، وهو لا يصنع بالقهر ولا بالعنف، وإنما بالتربية والتوعية.

والاجتهاد في الفهم مطلوب حتى مع وجود نص.. فالنص بقطع يد السارق لم يمنع عمر بن الخطاب من إعفاء يد السارق في المجاعة، وكذلك فعل صاحب المقام الأكبر الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو الأمين على الشريعة، حينما أعفى اليد من القطع في حالات الحرب، وكلاهما أعمل عقله في فهم النص، ولم يكن فيما فعلاه تعطيل للنص، بل فهم مستنير له.

وحسن الفهم عن الله هي السُّنَّةُ الأولى بالاتباع من الشكليات، ولأن نأخذ عن النبي عليه الصلاة والسلام أمانته وشجاعته وعفته وسباحته وصدقه لأفضل من أن نكتفي بأن نأخذ عنه لحيته وجلبابه.. وتعطيل العقل بأي عذر هو كارثة بكل المقاييس..

وأى قول بتعطيل العقل هو قضاء تام على الدعوة وتعطيل
للحيوية الباطنة في الإسلام، وللخاصية التي ينفرد بها في التعامل
مع الواقع المتغير.

والمشكلة كبيرة.. ولا يمكن أن تحل بإطلاق رصاصة.. ولكن
بالتعاون والفهم من جميع الأطراف..

هذا إذا أردنا أن نخرج من بدروم الخدم الذي نحن فيه.